الهجرة : تثاقف وتصادم

محمد أوبلوهو
كلية آسفي – جامعة مراكش

ظلت البشرية منذ ظهورها على وجه البسيطة في حركة دائبة في بحث عن ظروف اكثر ملائمة للعيش، وقبل ان تتعاطى البشرية للزراعة كوسيلة لتوفير الحاجيات الغذائية المتزايدة والذي سيفضي الى الاستقرار وبالتالي الى نشأة المدن، فقد كان الانسان يعتمد كليا على القنص ثم الرعي وهي بالضرورة أنشطة تقتضي تنقلات مستمرة وتفرض على الانسان نمط الترحال بدل الاستقرار. تلك كانت حال الانسان في عصوره الغابرة. وحتى بعد ظهور المدن وتزايد التعاطي للأنشطة الاقتصادية التي تفرض الاستقرار، ظل الترحال الذي كان بمثابة الأصل مستمرا، حيث لازالت هنالك جماعات وقبائل بل وشعوب تعتمد كليا على الترحال الذي يشكل جزءا أساسيا لهوياتها رغم الإجراءات التي تفرضها اليوم الدول على السكان.

فحتى يومنا هذا يمكن ان نجد بعض الجماعات البشرية التي لا يمكن ان ترتبط ببلد معين او موطن محدد، كما هو الحال بالنسبة للغجر في أوروبا او الطوارق في الصحراء الكبرى باعتبارهما نموذجا حيا للشعوب التي لا يمكن ربط هويتها بدولة معينة. لأنهم يحملون هويات عابرة للدول. ففي الصحراء الكبرى على سبيل المثال فان جزءا كبيرا من عدم الاستقرار الذي تعرفه هذه المنطقة حيث ينتشر الإرهاب والتهريب والصراعات السياسية المختلفة يعود بالأساس الى ان الدول الناشئة والتي ظهرت حديثا بالمنطقة لم تستوعب وجود شعوب لا يمكن حصرها ضمن حدود جيوسياسية مغلقة.

ان علاقة الانسان بالأرض ظلت وستظل دائما علاقة عبور، فكل استقرار هو استقرار مرحلي وهذا ينطبق على الافراد كما الجماعات. فكل منا أيا تكن ظروف عيشه الا ويتطلع الى مزيد من الرفاه وهذا ما يجعله في بحث عن موطن جديد قد يوفر له أفضل الشروط للعيش الكريم. فالهجرة التي أصبحت مظهرا من مظاهر هذه الحركة في العصر الراهن حيث ينقل لنا الاعلام

مشاهد لوقائع اليمة للهجرة خاصة من المناطق التي تعيش ظروفا صعبة كالحروب والمجاعة تدفع بالأهالي للبحث عن أماكن ملائمة للحياة. فالدول الغنية اليوم هي غاية المهاجرين حيث يخاطر البعض بحياته للوصول اليها مستعملا في ذلك كل ما هو متوفر لديه من وسائل. واصبحت هذه الدول تواجه أكبر تحد قد يهدد كيانها أيضا واستقرارها بهذه الجحافل التي لا تنتهي من المهاجرين القادمين اليها من كل مكان.

ان النوع الوحيد اليوم للهجرة الذي يؤرق البعض هي تلك الهجرات القادمة من المناطق التي تعرف توترات والتي تستهدف الدول الغنية. والحال ان هنالك هجرات كثيرة تتم دون صخب اعلامي لأنها تتماشى مع حاجيات الغرب مثل هجرة العقول والرساميل واليد العاملة المؤهلة بل نجد هنالك دولا تعرض جوازات سفرها للبيع مقابل الاستثمار. كما ان الهجرات التي تتم في الاتجاه المعاكس أي من البلدان الغنية نحو البلدان النامية أيضا مطلوبة. والحقيقة ان الهجرة هي واقع يومي بعضها يكون لغايات عابرة وظرفية وبعضها يكون من اجل الاستقرار. وعليه فلا يمكن ان نفرض علي أي كان إقامة دائمة في مكان دائم لأنه سلب لحق طبيعي وانساني.

ففي العصر الراهن حيث تطورت كثيرا وسائل النقل الجوي والبري والبحري بكل اشكاله أصبح التنقل سواء من اجل العمل والتجارة او الاستجمام والسياحة من مظاهر الحياة المدنية المعاصرة. لان تنقل البضائع والبشر من اهم العناصر الأساسية التي تساهم في تنمية البلدان، لذلك نشاهد ضغطا كبيرا على نقط العبور خاصة في البلدان المتقدمة والذي يعكس جانبا أساسيا من جوانب تقدمها ونشاطها الاقتصادي القوي. فلما اذن تطرح الهجرة اشكالا كبيرا على المستوى السياسي والاقتصادي بالنسبة للبلدان المتقدمة.

الواقع ان الهجرة ستظل ولن تتوقف رغم كل المحاولات والوسائل المستعملة للحد منها، لأنها باختصار حالة إنسانية ملازمة للطبيعة الإنسانية. وبالطبع فهي كأي حالة إنسانية اخرى لها مظاهر سلبية وأخرى إيجابية. ولا شك ان العنصرية تعتبر اليوم من بين التحديات الكبرى التي تواجه الهجرة. فكل الهجرات التي تأتي من الجنوب في اتجاه الشمال غير مرغوب فيها على الاقل في الوقت الراهن. لكن قبل ان تكون دول الجنوب هي مصدر أساسي للهجرة لا ينبغي ان ننسى

ان أكبر الهجرات التي حصلت في العصر الحديث هي التي كانت من دول الشمال وبالتحديد من أوروبا التي استوطن واستعمر أهلها كل بقاع العالم سواء تلك المأهولة منها او التي كانت منها ارضا مواتا.

فانتشار الرجل الأبيض في كل انحاء العالم يعود أساسا الى تلك الهجرات التي تمت أساسا انطلاقا من أوروبا في ما عرف بالكشوفات الجغرافية الكبرى حيث انتقل الأوروبيون في اتجاه اصقاع بعيدة جدا اقاموا بها وأنشأوا بها مدنا وحضارة. واتسمت هذه الهجرات بالعنف والدموية وخلفت اعدادا كبيرة من الموتى بل انهت حضارات كالازتيك والمايا وشعوبا كالهنود الحمر واخرون استعبدوهم واقتادوهم كالبهائم لاستعمالهم في ضيعاتهم ومصانعم كما حصل مع الشعوب الافريقية. وهذه صور وذكريات اليمة للإنسان الأبيض الذي تعامل بهمجية واستغلال بشع مع الشعوب التي اخضعها بالقوة. وهذا التاريخ الدموي الاستعماري هو الذي لازالت شعوب العالم الثالث تدفع ثمنه من خلال ظاهرة التخلف والذي لم تكن سوى نتيجة مباشرة لواقع الاستعمار والاحتلال الذي باشره الانسان الأبيض والذي دمر الانسان وكل البنيات الثقافية والاقتصادية لهذه الشعوب وخلق منها هيكلا هجينا مشوها.

ومنذ الكشوفات الكبرى وحتى الوقت الراهن ظل الانسان الأبيض ابن القارة العجوز المهيمن والمتحكم في مصير العالم حيث فرض قوته كنتيجة مباشرة للثروات التي اكتسبها من هذه الكشوفات والتي مكنته من فرض سيطرته. ومن خلال واقع الاستعمار التي نشا مباشرة بعد الثورة الصناعية والذي سيمكن الإنسان الغربي من قوة إضافية استغلها في المزيد من السيطرة على شعوب العالم والتي لا نزال نشاهد فصولها المستمرة. فالدول التي تفرض ايقاعها على العالم هي القوى الغربية بلا منازع سواء منها تلك المرتبطة بالقوة العسكرية او الاقتصادية او المالية. وسيكون كل حديث عن الاستعمار خارج سياق غزو الدول الغربية للعالم ابتداء من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين حديثا مجانبا للصواب.

ان التجربة الاستعمارية لحظة تاريخية متميزة لها شروطها الخاصة ومنطقها الخاص، ولا يمكن ربطها باي شكل اخر من اشكال الاستيطان الذي عرفه تاريخ البشرية، حيث ان الهجرة واحتلال

الشعوب بعضها لبعض امر عادي جدا وسيستمر لارتباطه بضرورات إنسانية قاهرة، وحركية التاريخ البشري مدين لها، ومنها ما يتم بالقوة ومنها ما يتم بطواعية. لكن من حين لآخر تتخذ هذه الهجرات الإنسانية المكثفة طابعا عنيفا حينما تصطدم بإكراهات ثقافية واقتصادية، فتواجه بالمقاومة وتنتج عنها صراعات وحروب تتخذ ابعادا عنصرية سواء من قبل الجماعات المهاجرة او تلك التي تستقبل المهاجرين على أراضيها.

ان الاستعمار كتجربة تاريخية فريدة في العصر الحديث لا يمكن باي حال من الأحوال اسقاطها على الصراعات التي تعرفها بعض المناطق في العالم خاصة في افريقيا واسيا والتي تكون بين دول الجوار وتتخذ طابعا اقليما لتداخل الجماعات البشرية ونظرا للتاريخ المشترك بين تلك الشعوب، ومن هنا لا يمكن مثلا اعتبار قضية الصحراء الغربية مسالة تصفية استعمار مثلا.

المستعمر بالتعريف لا يمكن ان يكون الا غربيا ومن ثم فان الشعوب التي تنتمي الى نفس الفضاء الثقافي لا يمكن ان تكون مستعمرة بعضها للبعض. فالمكونات الثقافية والاثنية للمنطقة سواء في الصحراء او المغرب او الجزائر هي نفس المكونات وبالتالي فهذا الصراع هو صراع داخلي او إقليمي وليس استعمارا بمعناه الثقافي والتاريخي. ونفس الامر ينطبق على إقليم كشمير، وتايوان والكوريتين باعتبارها من اكثر النزاعات الإقليمية اثارة نظرا لخطورتها لأنها ترتبط بمناطق اريد لها ان تبقى ضمن دائرة التوتر المستمر حفاظا على مصالح القوى الاستعمارية التقليدية. وتؤمن الهيمنة الغربية على العالم.

ان هذا النوع من الصراعات ليس سوى امتداد لواقع الاستعمار الذي عرفته المنطقة وغيرها من المناطق الاخرى. فالشرخ الذي احدثه المستعمر في كل مناطق العالم وفر حضورا مستمرا للقوى الغربية من خلال الحدود التي رسمها في غفلة عن شعوب هذه المناطق. واتخذها سببا مباشرا لتدخله المباشر في مصير هذه الشعوب الذي تحسب نفسها مستقلة، وهي في الواقع ليست سوى صنيعة من صنائع الاستعمار التي تؤكد بقاءه واستمراريته. بل ان هذه الشعوب عوض ان تبحث لنفسها عن هويتها الحقيقية تبنت هويات جديدة — بل فرضت عليها قسرا –انبثقت من واقع الاستعمار. فالهوية الوطنية لكثير من شعوب العالم ما بعد الاستعمار هويات مصطنعة ولا تستند

الى أي أساس تاريخي او ثقافي. وهذا ما يجعل الحديث عن وجود دولة بمقوماتها وعناصرها الحقيقية تكاد تكون منعدمة بالنسبة لهذه الدول الناشئة التي صنعها الاستعمار. فبقاءها واستمرارها رهين أساسا باعتبارات دولية خارجية هي التي توفر لها الحماية أكثر مما هو متوقف على امكانياتها الذاتية.

وعليه فالاستعمار يشكل تاريخيا لحظة فارقة جعلت بعض الباحثين يميزون في تاريخ العصر الحديث عن مرحلة ما قبل الاستعمار ومرحلة ما بعد الاستعمار. فالجغرافيا السياسية مدينة كلها الى الاستعمار. بل ان الحضارة الغربية المهيمنة اليوم في كل بقاع العالم ليست الا نتيجة مباشرة لواقع الاستعمار الذي سعى الى محو كل الثقافات الأخرى وفرض نموذج ثقافي كوني مشترك باسم التقدم والتحضر، وهو نموذج لا يخدم في العمق الا مصالح القوى الاستعمارية التقليدية من الناحية المالية ولاقتصادية. فالاعتقاد بان هنالك انعتاق من الاستعمار ونهاية له ما هو في الواقع سوى وهم تسوق له أساسا الأيديولوجية الاستعمارية ذاتها.

ان واقع الاستعمار فرض نموذجا حضاريا موحدا على الجميع. بحيث قبل الجميع هذه الهيمنة التي أصبحت تتم بكيفية ناعمة وصارت خلاصا يتطلع اليه الكل. لم يعد اليوم مستهجنا حضور قواعد عسكرية وبعثات اجنبية للقوى الاستعمارية التقليدية في تلك البلاد التي كان الناس فيها يحاربون بشدة كل حضور أجنبي باعتباره خطرا يهددهم في كيانهم وهويتهم. فهل ستستيقظ هذه الشعوب ذات يوم لتحيا ثقافتها من جديد ام ان واقع الاستعمار أنهي بشكل لا رجعة فيه اية إمكانية للعودة الى مرحلة ما قبل الاستعمار، والذي يمكن نعته حقا بانه زمن التعدد الثقافي وزمن الاختلاف في مقابل زمن الكونية والاحادية.

والخطير ان الاستعمار لا يشكل تحديا فقط للدول التي تعرضت له وأفقدها سيادتها وهويتها بل ان المستعمر التي كانت غايته في البداية فقط السيطرة على المزيد من الموارد قد امتدت اياديه الى ما هو ثقافي ولامادي مما جعله يدمر بيئة حيوية ضرورية للتنوع الطبيعي والثقافي. ومعلوم ان هذا التنوع ضروري. ولعل الأصوات اليوم التي ظهرت متأخرة في الغرب ذاته وترفع شعارات حماية البيئة والتنوع الثقافي، وهي للأسف أصوات محدودة تنحصر في بعض الدوائر العلمية

والمثقفة، ولا يمكن اعتبارها ذات امتداد شعبي جماهيري، هي التي يمكن المراهنة عليها لتجاوز اثار الاستعمار، وإعلان ميلاد حقبة جديدة بمفاهيم جديدة تقطع جذريا مع ما انتجه فكر وثقافة القرون الثلاثة الماضية والتي كانت العصر الذهبي للاستعمار.

وختاما فقد ان الاوان لنتطلع جميعا الى عصر جديد تكون فيه لكل الثقافات والشعوب نفس الحقوق. بعيدا على ثقافة الاستعمار التي تقوم على الاستعلاء الغربي على جميع الثقافات. ويكون الرهان الأساسي فيها حماية الطبيعة والانسان معا كما تدعو اليه ما اصطلح عليه بالتنمية المستدامة التي تفكر أيضا للأجيال الحالية والمقبلة أيضا. هذا يتطلب اصلاح اعطاب الاستعمار وإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد ان امتد تدمير المستعمر الى كل شيء.